الرقم ٢٤

قصة بقلم حميد حيدر

كنت اتمنى ان اراه ، فهناك مشروع صداقة لم ينفذ بعد ..وعندما سالت اخاه سليمان : هل بشر في اللاذقية ..؟

لم يرفع بصره عن المكواة وسال في لا مبالاة : من تكون ؟ صديقه في الجامعة .؟ رفعت راسي في الاعلى واردفت ، هل خطب .؟ اشتعل وجهه بالغضب ورنا نحوي متوقفا عن العمل : من وكيف .؟

ادرت ظهري باتجاهه اواري بسمة مختنقة واكمل كلماته : وهل يحق له ان يخطب وما زال امامه عام لينتهي من الجامعة ، كيف اسمح له بذلك قبل ان يستطيع تستير بنات العالم .

اردت ان اقول له : كلنا نتزوج بنفس الطريقة الخطأ .

لكن كلمته الحادة الاخيرة جعلتني افكر « ماأكثر الاوصياء عليه .. حتى هو مازال في وسط اللعبة . »

وشعرت بانني قد صنعت ازمة سخيفة ، فقد اعتبر سليمان الامر جديا وراح يناقشه بمنطقه الذي لايخطيء في نظره ..

تركت كلمة صغيرة لبشر وخرجت ..

« اللاذقية قذرة بما فيه الكفاية لوجود سيادة المدير فيها ، ولهذا لم تكن لتطاق »

بهذا كنت افكر ، وعندما ترتكتها ورائي وانا انظر من خلال زجاج السيارة نحو حقول القمح الممتدة عبر البصر ، لم اكن حزينا لوداعها ..

منذ سنوات وعرش المدير يزداد رسوخا في هذه المدينة لم يتاثر بالهزات التي اطاحت بعروش الاخرين ، خلال عامين وهو مصر على نفيي بعيدا عن زوجتي واطفالي مخترعا قانون الدور والجدارة والارقام ، وكان يسحق ببساطة امالنا نحنُ الصغار التافهين الواقعين تحت بؤرة نظارتيه البيضاوين ، وكنت اتساءل : اي قانون لعين ذلك الذي يتيح له اصطياد الفراخ البريئة ..؟

على جانبي الطريق ، حقول الحنطة الخضراء ، والشعير المذهبة ، تتماوج في تيه وبلادة ، والمسافرون يثرثرون ، وانا معزول تماما عن هذا الجو ، مسرور لانني لم التق بانسان يعرفني في السيارة . كنت اهوى الصمت والتدخين ، والاخرون ، ذلك السمك الطافي ، يرعبني منظره ، لانه يفسد كل شيء ، وهو يشبه الى حد بعيد سيادة المدير .

لوحدي كنت اردد حكايتي مع المدير ، وقد دخنت اكثر من عشر لفائف على فنجان قهوة ، وخطرت فكرة جهنمية في رأسي « لماذا لا اقتل المدير ..؟؟ » وضحكت بلا اسنان ، فالقتل عملية تحرير كاملة ، وانا غاطس في عبوديتي الذاتية ، وتمنيت لو ينقلب المدير ارنبا التقي به في البرية ومعي بندقيتي .

انقذفت من داخل السيارة على ارض مدينتي التي لم تتبدل ، فمنذ اعوام ودعت براءتي ودخلت هذا القفص الشنق فيه في الاماسي الصفراء مرة ثانية وثالثة ، والف الناس يزحفون على الارصفة وفي المقاهي وعلى الاسطحة ، ولا احد يفكر بقضيتي مع المدير ، وبصقت على جدار عمارة ضخمة تتحدى ذاتها ، وتابعت السير نحو البيت .

صر مزلاج الباب ، وارتمى ثقلي في الداخل ، وواجهني الصغير مندفعا ينط كارنب : اين القطار والموزة ... بابا .

احتضنته ورحت ادور فيه ، مقدما له بسمة مقتضبة ، واشرت له نحو كيس صغير رميته على الخوان وانا افكر « صغيري يفكر بقطارة وموزته وانا افكر بالحرية والقتل .. يترعرع مع الفاجعة جنبا الى جنب بلا سبب قدمه وسألته : هل تحب القطار يامجد ..؟

اجاب في لثغة وخبث : هل سنذهب فيه الى القدموس .. بابا.؟

تناسيت نفسي وقبلته : بل سنصعد فيه الى القمر ..

قفز من حضني واتجه نحو الكيس ولهفته تنفجر على حوافي القطار، بينما تراخيت انا على الخوان اقابل منهكا ، اصفر لحنا لا معنى لـه وجاءني صوت الوزارة من الغرفة المجاورة : الاخبار يااستاذ ..؟ قلت : لم اعد استاذا ، انتهيت من صلعة المدير .. تعالي اريدك ان تحدقي بي بقوة .. قدمت مذعورة ، وصوبت نظراتها في رأسي ، قلت : حدقي باقوى من ذلك ... اريد ان يحدق بي جميع سكان هذه المدينة ... ساركض في الشوارع واصرخ ، حدقوا بالرقم ..

لم تدرك شيئا من كلماتي وفتحت فمها : لماذا تتكلم بهذه الطريقة.. انني لا افهم .. هل .. هل عادت اعوام الهذيان ..؟

ـ هل حدقت بما فيه الكفاية ، هل شاهدت بي مايشبه رقم ـ ٢٤ ـ ، مارأيك لو تعريت تماما وجاءت المدينة باسرها وخطبت فيهم ، اينها الارقام البشرية في قانون المدير ...

تراخت ندى على كرسي بجانبي وبدت كانها ليست من هذا العالم، واحسست بصداع يمزق رأسي ، واطرقت نحو الارض وسألت : ماذا تعني بالرقم ... الا تملك طريقة اخرى للافهام .؟ رنوت نحوها ببطء : لقد رقمني المدير ياعزيزتي ، وعندما يدور دولابه ويقف على الرقم ـ ٢٤ ـ انتقل الى هذه المدينة ، هناك ثلاث وعشرون رقما بشريا ، وانا الرابع والعشرون ، وعلي ان اقبل عملية الترقيم هذه ، فهي الطريقة المثلى لرفع الحيف ، وحاولت افهامه انني لست رقما ، ولكنه اصر .

ـ وماذا كانت النتيجة ..؟

ـ قذفت استقالتي في وجهه وخرجت العن المدير والوظيفة والعالم.

لف الغضب وجهها ، وصدمها حزن مفاجيء ، هل تعتقد ان تصرفك لم يكن سلبيا .؟

ـ انتظرت كثيرا ، وتشردت اكثر ، وابدا القانون في وجهي ضدي باستمرار ، واخيرا جربت ان اقول لا لمرة واحدة ..

ـ اعتقد انك استعملتها هذه المرة ضدك ، وقد خدمت القانون الذي ترفضه ، ماذا خسر المدير والاخرون ...؟

اطرقت مليا ، ثم رفعت رأسي : لن استجدي احدا ، هناك الف طريقة للعيش عندما يكون لدى الانسان قابلية الحياة .

اجابت في شك : هل تعتقد انك تملك هذه القابلية ..؟

ـ ربما .. حتى الان لم تتوفر لي الطريقة المثلى لنسف الحياة.. وربما لن ارفض لو اتيحت لي ذات يوم ..

ـ لن تخرج من هذا الهذيان ، الا تعتقد انك تسمم حياتك ..؟

ـ انا لاهذي ، وربما كنت ممثلا يحيا في غيبوبة تامة عن الحياة. وشعوري الان انني حطمت قيدا ولا ادري ان كان هذا مرعبا للدرجة التي تتصورينها .

ـ هل فكرت جيدا في البيت والاطفال والمستقبل ...

وقفت وانا انسحق الما من الداخل واتجهت نحو الباب افتحه والتفت اليها : قذر هذا العالم .. تزكم انفي روائح العفونة .. بخاطرك الان .

ـ الى اين .

ـ الى الطرقات ليحدق الاخرون بالرقم ..

انصفق الباب ، وترنحت في الشارع المحاصر بالابنية البلهاء ، المدينة ماتزال تنفل وانا محاصر بالاحداق الرانية في تبلد من الثقوب الزجاجية « فاجعتي واضحة ، لقد ادركت بعد فوات الاوان » .

على يساري بدا البحر والجزيرة المرمية فيه هادئة صماء ،وبجانبها زوارق عارية بلا اشرعة ، وراودني حلم الرحيل ، واحسست بقدمي تلطمان رصيف المقهى ، وفي الداخل جلس « محمود » وحيدا الى طاولة يلعب الورق وحده ، وفي فمه لفافة تنشر دخانها .. فضحني من خلال نظارته ، فابتسم ببرود ولا مبالاة .. اتجهت نحوه وحييت ، فمد لي اصبعا ساخرة « سلام »

ارتميت على كرسي بجانبه ، واحساسي مدمر بكابة ملحوظة فبادرني : الى متى تظل كئيبا تحمل سلالم العالم بالعرض ..

اجبته بلا تفكير : انني محمول ..

كان محمود نموذجا معقولا تروق لي صداقته ، رغم الهاوية التي تفصلنا ، فهو يملك حسا قبوليا لكثير من معطيات الحياة ، يعمر قلبه النقاء ، ويتقن الود ، ويكاد يكون في تصالح دائم مع الحياة ، حصيلته من الحياة تجربة سياسية عمرت كيانه ذات يوم ، ثم مالبثت ان استعبدته فاحترفها ، ولم يكن غبيا كما يبدو عليه ..

كانت الساعة تشارف السادسة تقريبا ، عندما اقبل النادل يسألني ماذا تشرب ..

ـ شاي ..

تكور محمود على نفسه وتمتم : مارأيك باوضاعنا السياسية ..؟

اجبت باقتضاب : لا رأي لي ..

حوقل وبسمل ممتعضا : ها .. عدنا للرفض والتأزم .. بصراحة انتم لا تطاقون ..

رنوت نحوه : ماذا تعني بهذه الانتم ..؟

ـ انت والشلة المقدسة من المريدين . واتبعها بضحكة ذات رنين ..

تنهدت وحركت رأسي بشكل دائري « هذا الانسان يفهم بشكل معكوس »

اجبته : محمود ... هل تقول لي ما هي الطريقة لان تفهم وتميز ..؟

ـ افهم ماذا ..؟

ـ النسخة الواحدة ، والتمايز بين الافراد .. انا امثل نفسي ، ولي عذابي الخاص ، وتقييمي المتفرد ..

ـ هل أتجنى لو قلت انكم تتكلمون بنفس اللهجة وتناقشون نفس المواضيع .

ـ ولكن هناك نتائج مختلفة وتمايز واضح .. فقد نتفق بفكرة واحدة مثلا ، هذا العالم غير حقيقي تماما ، والزيف يغزو الحياة يكتسح الشوارع والمباني والدوائر ..

ـ نفخ محمود متأففا : هل تعتقد اني ادرك ما تعني ..؟

ـ وانا لا املك طريقة اخرى للتعبير ..

تأرجح على كرسيه : دعنا من هذا .. الم تفكر بالعمل السياسي ..؟

مرغت انفي باصبعي وناولني لفافة اشعلها من قطاره الذي يسميه بكل بساطة ولاعة ..

قلت : انت تفكر بالسياسة ، فهي تبدو لك قدرا ومعتقلا لا تحسن الافلات منه ، فهل يتحتم علي ان افكر بنفس طريقتك ..؟

ـ ولكنها مرحلة خطرة كما ترى ، والموقف يتأزم يوما بعد يوم ..

ـ وانا ماذا املك ضد هذا الانهيار المرعب ..؟

ـ تملك امكانيتك وصدقك .. الجماهير تتلفت نحو المثقفين ، والصمت يكاد يكون خيانة .. الم تسأم التفرج ..؟

ـ منذ اشهر ، بل منذ سنين ، وهذا البلد يعاني ، يرتفع ويسقط ، الشعارات ترتفع ، واصوات كثيرة لاتعد ولا تحصى تزعق بنفس الكلمات ، ونحن هنا لا نملك غير آلامنا وتمزقنا الضمني ، ومع هذا ماذا كانت النتيجة ..؟ مادورنا في هذا التصارع ..؟

ـ ومنذ اشهر ، بل منذ سنين ، وانتم تناقشون هنا ، ترمون كلمات في الفراغ ، ولم تتحركوا ، كنتم متوقفين تماما ..

ـ ماذا تعني ..؟

ـ الفردية ... انتم فرديون .. معزولون عن الاحداث .. لا شيء الا الجدل حول الكتب الوجودية والازمات النفسية ، والرفض التام لكل قيم الحياة ..

ـ اسمع محمود ، ربما اتفقت الادانة .. ولكنني احب ان اقول لك كلمة ، لم نعزل بمحض ارادتنا .. الاخرون دمروا براءتنا الاولى وقيضنا القومي ، سرقوا حياتنا اذا صح التعبير .. ونحن في قلب الاحداث ، ولكننا نناقش بطريقة اخرى تختلف عن طريقتك .. ربما اختلفنا في اسلوب التعبير ، ثم هناك شيء اخر ... فالامور تبدو مختلطة ، فهناك افواه لا مجدية غريبة مدسوسة ، زيفت اعمق الشعارات اصالة ، اخرون كانوا في الارحام عندما ولد النضال ، واخرون كانوا في الوحل .. ثم محترفون يعيشون على انقاض الماضي تماما « كبابلو » في رواية « لمن تقرع الاجراس » .

شرد محمود للحظة ، ثم انفجر : ولكن مصير وطن لايصنع في مقهى .. فالشارع مقفر ، وهو ينتظر السيل الحقيقي ..

هززت رأسي وابتسمت بسمة بلهاء ، مقيتة : نحن اليوم بلا شوارع ..بل اكاد اصرخ الما ، بلا سيول .. امتصت البراءة الاولى للينابيع... فالنكسات لم تبق الا السواقي الجافة التي تتركك تقول وانت تنتحب امامها : لقد كان يجري هنا جدول .

امتعض محمود ، وخيم طيف جرح بعيد لمحته في محياه .. وبدا كانه اصيب بخيبة ، وذعر عندما قال : كلماتك لاتحمل الا اليأس والشقاء. لقد تغيرت كثيرا ، وتبدو ابدا وكانك قادم من مقبرة .

ـ اعتذر اذا كانت كلماتي جرحتك ، ماأردت ان اقوله ، ان الانسان العربي يمر في حالة فقدان الوزن .. معلق في فراغه وربما من يأسه وشقائه يحرر ثقله ..

ـ ولكن هل ينطلق من هنا ..؟

ـ الان على الاقل لايعدو ان يكون رقما يدور وهو مرمي هنا رغما عنه ، وفقدان الاخلاص يسمم عصره .

كانت عقارب الساعة قد شارفت على السابعة ، عندما تململ في جلسته : لم نصل الى نتيجة .. مارأيك بالمشي ..؟

نهضنا خارجين من المقهى ، اجبته ونحن على الباب : انت تضع النتائج في رأسك بشكل مسبق .. ولهذا تعتبر نفسك قد خيبت ... انا على الاقل لا أصلح لشيء الان ..

ـ هل اشتعل الحريق في البيت ..؟

ـ حريق من نوع اخر ، صدام جديد مع السلطة ..

ـ مثلا ...

ـ استقلت من وظيفتي ...

بهر محمود بالنبأ المفجع بالنسبة له ، وحدق بي مرتابا ، هل وصل الجنون بك هذا الحد ..؟

ـ وصل .

ـ ولكنها ورطة مخيفة ..

ـ اعلم يابني التورط .. لايوجد سبيل اخر .

ـ من وجهة نظرك ..

ـ بل من وجهة نظر الحقيقة والاله وانا ..؟

ابتسم محمود لغضبي واردف : لقد ورطت الاله وهذا كفر ، الم تسمع الاية الكريمة ..

قاطعته ، لاأريد ان اسمع ،

ـ ولكن هل نسيت نفسك ، وانك ...

ـ اكملت له ..

ـ متزوج ولدي اطفال ، والاخرون يخططون لي مستقبلا .. من المؤلم انكم لاتفهمون .. سفينة الغباء تمخر بالعالم .. انت لاتختلف عن زوجتي .. الا ترى انكم انتم النسخة الواحدة ...؟

لم أكن أحس وقع الاقدام بالشارع الذي بدا اقل نفولة بالاسماك.

اشعل محمود لفافة وعرض علي لفافة ، فاعتذرت ، سألني : الا يمكنني ان افهم تدبيرك ..؟

ـ محاولة خروج من فخ ... كنت اشعر بالضعة والشلل ... احترقت كثيرا تحت الشمس ، وابدا كانت عيون المارة تثقب جمجمتي بلا تساؤل وانا انتظر سيارة تنقلني الى مقر عملي .. الاخرون لايدركون الفاجعة ، ومع ذلك عندما احاول استرداد حقي يصرخون : مجنون ... لقد دمر غده وبيته ..

آله القانون مثلا ينسخني بعملية ترقيم ويقول : انا انصب ميزان العدالة . وابدا كانت الحياة تسير في جذوع الاخرين ، كنت اشعر

بشيء يشبه التوقف ، يطاردني حس التبلد والتفاهة واللاشيئية ، وكنت اقول انا وحدي ساتحرك ولو بالانفجار .

اجاب محمود ، الم تفجر ذاتك بهذه العملية ..؟

ـ ابدا ، لقد تحركت فقط ، المهم انني لن ارقب نفس العيون الحادة الصلبة تنفرس في صدري ، ولم اكن استطيع ان اقتل ..

ـ انت اخترت الوظيفة ..

ـ لقد اختارتني واستعبدتني ، وجاءت فرصة الافلات على يد سيادة المدير العادل .

ـ هل تعتقد انك اصبحت خارج ماتسميه اللعبة او الفخ .؟

ـ هذا ما اساله انا نفسي ..

شارفته الساعة على السابعة والنصف ، عندما اصبحنا بجانب السينما ، فالتفت محمود يسأل : هل تحضر الفيلم ..؟

كانت السينما قد تحولت في حياة محمود الى شيء يشبه الفريزة فهي كالدودة تنفل في رأسه ، ولم يكن يستطيع السهر بلا سينما الا اذا كان هناك مشروع سكرة تعوض الخسارة ، وكنت اطلق عليه « الانسان الشاشة » رغباته تفرغ هناك على الشاشة البيضاء ، رغباته الدفينة التي لاتبوح .

اعتذرت عن الحضور ، وقبل ان نفترق ، سألني : كيف ستحيا ..؟

ـ حتى الان بلا مشروع .. ربما رحلت .

كلمة اخيرة : انت مزدوج .. هل تعبيري صحيح ..؟

ـ انت احيانا اشد ادراكا من اولئك الذين يسمون انفسهم عباقرة .. الى اللقاء ..

اكملت طريقي وحدي مطرقا ، أفكر باشياء غير محدودة ، تناولت من حانوت مجاور زجاجة بيرة ، وتابعت .

كانت ندى ماتزال ساهرة ، رغم اعتيادها النوم الباكر ، عرفت ذلك من النور المضاء .

دخلت المنزل بهدوء الى غرفة النوم ، فشاهدتها تجلس على السرير وآثار دموعها بادية « لقد كانت تبكي كالمعتاد » .

سألتها : في اي عصر ستجف دموعك ..؟

اجابت في غصة : عندما تهدأ وتعود طبيعيا ..

اردفت وانا اجلس بجانبها : هل تتألمين لو قلت لك انني من الجيل الملعون الذي يفكر اكثر مما ينبغي احيانا ، والذي يبحث عن اليقين .

ـ لماذا يعيش الاخرون في بساطة لا متناهية بلا آلام ..؟

ـ لاادري اساليهم .. ربما لاحتفاظهم حتى الان ببراءتهم ، او لغبائهم .. ثم لماذا تبكين .. هل يوجد مايرعب ..؟

مازال الناس يرتادون المقاهي وصالات السينما ، ويتمرغون في الشوارع المغبرة .

كفكفت دموعها وسألت : ماذا تحمل في يدك ..؟

ـ بيرة ان كنت مازلت استحق ان اشربها .

نهضت متثاقلا ، فتناولت كأسا في الخزانة وبدأت اصب البيرة وانا ارنو للرغوة البيضاء ، وعندما لامست شفتي ، ذكرتني برائحة شعر امراة ما ، مرغت وجهي فيه ذات امسية ، رفعت الكأس وقلت : نخب الحرية ندى ..

ضحكت بشكل هستيري غير مقبول ، وذعرت من قهقهتي ، فسألتني في رعب : ماذا دهاك ..؟

ـ لا شيء ، تذكرت اغنية نجاة .

اعقبت على كلمتي بسؤال : هل تعتقد انك سوي .؟

غيبت البيرة في جوفي ، وبدت امامي صورة لصديقتي قبل الخطوبة داخل اطارها الكستنائي ، فبدت لي وكأني اراها للمرة الاولى ، هتفت : انها رائعة .

ـ من .؟؟

ـ صورتك داخل الاطار .. مثلي تماما .. هل تعلمين انني حلمت ذات مساء بالحرية ..؟

حيدر حيدر

قريبا :

سلسلة القصص العالمية

وفيها تقدم دار الاداب اروع ما كتبه كبار ادباء العالم من القصص الطويلة والقصيرة .

انتظروا الحلقة الاولى :

قصص سارتر

في كتاب واحد ضخم يضم القصص التالية :
الغثيان ـ الجدار ـ الغرفة ـ ايروستراتس ـ صميمية ـ طفولة قائد ـ صداقة عجيبة

نقلها عن الفرنسية
الدكتور سهيل ادريس

والحلقة الثانية :

قصص كامو

في كتاب واحد ضخم يضم القصص التالية :
الغريب ـ الزوجة الخائنة ـ الجاحد ـ البكم الضيف ـ جوناس ـ الحجر الذي ينبت

ترجمة
عايدة مطرجي ادريس

منشورات دار الاداب